منابع النيل

حسب عقيدة قدماء المصريين

لانطون زكري

— ٣ —

بحث العالم القديم والحديث في منابع النيل

فرق المزايا العلمية والصناعية التي امتازت بها مصر في قرونها الأولى قرون العظمة والأسعاد والتفوق الباهر على سائر الأمم ، خص الله هذا الاقليم بالنيل المبارك ، وهو أكبر المنن الالهية التي جعلت كافة مواهب البشر أمامها لا تكاد أن تكون شيئاً مذكوراً . فالنيل هو ينبوع الحياة ، ومهد الارتقاء ، ووسيلة الحياة الخالدة ، ورغد العيش المزيد . فكلما أمعن الباحثون في التفكير بما تقله أرض مصر من العجائب الصناعية ، والهياكل والآثار والمباني التي قاومت العصور ظاهرة فوق بعض المواطن ، وتحت بطون الأرض وفي غيرها ، يرتد إليهم صدى مجهوداتهم الفكرية حائراً ذاهلاً ، كلما رأى النيل يتموج بأعاجيب المناظر ، ويتدفق في مجاريه بأوفر الخيرات ، على بلاد أسعدتها الطبيعة بأن يفيض عليها من كنوزه وخيراته ، ما جعلها تمتاز بسمة الخصب وقوة النماء . وإن أهاليها كلما جدوا في الأعمال الزراعية ، جادت عليهم بأضعاف ما كانوا يتمنون في مبادىء أعمالهم ، فيلتطون على الدوام الى التوسع في استخدامها ، بقدر ما تشجعهم عليه سعة الآمال ، فلا تضن الأرض بما استودعت من المزايا ، ولا تكل السواعد ولا الهمم عن اجتناء أطيب الثمرات ، واحراز الأرباح الوافرة . وهكذا كان المصري وبلاده في دور نشأته الأولى وسعادتها الماضية كل على صاحبه بجود بأقصى المنح ، فتجدد الأراضي زينتها النباتية ، وتتنوع لأقوام الشعب موارد ثروتهم المالية .

كانت مصر بهذا الاعتبار مصدراً للعجزات العقلية ، لأن خصائصها الشهيرة ، ومميزاتها المدهشة ، لم تجتمع في غيرها من الأقاليم ، وكفى أن منابع النيل وأدوار فيضه وتطوراته انتقاصه واستمرار مجاريه على حالة لا تعوقها الرواسب ، ولا كميات الرمال ، التي تذروها الرياح في المناطق ، قد جعلت ألباب الباحثين حيارى . وطالما عاق الأقدمين الوصول الى

حل مسائله العويصة ، ولكنهم وقفوا أمام أقاويل وآراء كل فريق يعضد فيها حجته التي يؤيد بها رأيه هي رأي مناظريه ، واستمدت بالقوم العصور الخالية [illegible] في هذه النقط الى تمحيص نهائي يرفع النقاب ويزيل الغموض .

وروي في عصر « هيرودوت » الخرافي رواية أشبه بالخيال منها بالحقيقة ، إذ قيل فيها إن النيل كان لما رأى قرب الشمس من الارض خشي من احتراقه بلهيبها ، فأخفى رأسه في آخر الكرة الارضية . وإلى القرن السابع عشر ق . م لم تصل مباحث المؤرخين الى رأي سديد في حقيقة منابعه ومبادئها .

١٠ — رسم بسامتيك الاول وتحته اسمه بالهيروغليفي

وقد أفرغ الفراعنة مثل سيزوستريس (رمسيس الثاني) وغيرهم جهداً كبيراً من عنايتهم للوقوف على حقيقة الينابيع فما استطاعوا . ولما قدم الى مصر هيرودوت ، وابتدأ مباحثه عن الينابيع لم يرشده أحد ، وذكر أن بسامتيك (رقم ١٠) أحد ملوك الاسرة ٢٦ ، ألف بعثة مكونة من (٢٤٠,٠٠٠) مائتين وأربعين ألف رجل ، وأمدها بكل ما تحتاجه لتسهيل العقبات في مسيرها والوسائل القتالية الاخرى في نقل الاحمال والمؤن والوسائل الذهبية إذا صادفها شيء من ذلك ، وترتيب وصول المعلومات منها إليه عن الاقاليم التي تجتازها ، والمناظر التي اعتدت إليها ، وعجائب الاودية والقبائل ، وأمدها بسمة الاعداد والمعونات الكبرى لتتغلب بالبذخ والسخاء والمعدات الكثيرة على انجاح مأموريتها ، فقضت فيها بعض السنين ، وعادت من حيث أتت ، ولم تدون غير اكتشافات جغرافية عن بعض المواقع في تلك المجاهل ، ثم استحكمت هذه الفكرة لدى اسكندر المقدوني وقمبيز ، ورتب كل منهما في عهده رحلة خاصة ، وأمدها بأساليب أقرب في الوصول الى الغاية المطلوبة ، وأسهل منالاً في الاستكشافات والتوسع في المعلومات ، فعادت كباقي البعثات الماضية راضية من الغنيمة بالاياب .

وفي القرن الثالث ق . م . في عهد بطليموس إفرجت ، تكلم المؤرخون عن منابع النيل ، فكانت آراؤهم متطابقة مع المعنى الذي أورده الشاعر الروماني في كتابه المعروف « بالفرساي » (Versailles) على لسان يوليوس قيصر أن النيل يخفي رأسه عن الانظار كحياء لا تبرح عن دلالها مهما أطال إليها المشوق الضراعة والاستعطاف ، فالنيل يستتر في مجاريه غياباً متفقاً بينما أفكار الباحثين تكدّ وتجهد وتوتد بالملل والضعف .

وفي القرن الأول ق . م . أبدى « جوبا » ملك « موريتانيا » رأيه في منابع النيل ، وتبعه فيه « بلين وميلا والمؤرخ ديون كاسيس » وهو أن منابع النيل الناصرة نبعة تحت الصخور والتجاويف العميقة بتلك الأودية والوهاد ، لا يستطيع أفراد البعثات التي تنتدب من أجله خوض غمار تلك المياه . وفي هذه المنابع الفجوات التي تتفاوت بين الضيق والسعة والمنعطفات الطويلة ولا تستطيع إلا إذا تطوعت بحياتها للخطر الذي لا يحتمل معه عود بعض أفرادها ليلبيء الباقين عما رأت عيناه ، ووعته ذاكرته من هذه المناظر وعجائب تكوينها .

وقال بطليموس الجغرافي المولود في القرن الثاني ب م . إن منابع النيل تنشأ في بحيرتين كبيرتين بأعلاه خط الاستواء . ولا يستطيع الغرباء التجول في ما وراءه ، لأن الأذهان ممتلئة بالروايات المنفرة عن وجود الوحوش والحيوانات الضارية التي تفتك بكل من أراد المسير في غاباتها أو مغاورها .

جاء العرب بعد اليونان خلفاء لهم في الاستعمار ، وحكموا مصر واستولوا على بلاد النوبة وغيرها من البلاد المجاورة لمنابع النيل ، وأحكموا صلاتهم التجارية والسياسية مع السودان وشعوب أفريقيا الجنوبية ، واتخذوا هذه التمهيدات وسيلة لوصولهم الى ما عجز عنه أسلافهم في تلك الأقاليم المجهولة .

ومن مشاهير العرب الأجلاء الذين صرفوا وقتاً مديداً ، وعزماً صادقاً ، في الوقوف على معلومات صحيحة بشأن منابع النيل الامام الشهير أحمد بن محمد بن عبد السلام المنوفي نسبة الى منوف في نهاية القرن التاسع الهجري . وكان اماماً في العلوم الاسلامية ، وتواريخ الأمم ، احترمه كثير من العلماء ، وأئمة البحث ، وعظماء الشعوب ، ونقلوا عنه في مؤلفاتهم . وكان يثبت لتلامذته أن العلم الصحيح والتقوى توأمان ، فمن لم يزدد عقله بقوة الايمان ، الذي هو فوق نواميس الطبيعة ، يكون دائماً في تردد الحيرة والضلال . دوّن هذا المؤلف الشهير كتاباً عنوانه « الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد » ، وتوجد منه نسختان خطيتان ، إحداهما في دار كتب مرسيليا والثانية في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تكلم فيه عن منابع النيل وأصله واستمداده وطوله وعرضه .

ثم جاء نابليون مصر مع بعثة علمية بحثت في أحوال البلاد وأمورها ، ودوّنت عنها مؤلفات كثيرة ، ولكنها لم توفق للبحث عن منابع النيل .

وفي سنة ١٨١٩ أرسل محمد علي باشا بعثته العلمية الشهيرة برأسها « جالياردو » المهندس الفرنسي ، فسافر الى الخرطوم ، وقال في مذكرته إن منابع النيل تبتدىء من جبال القمر .

وفي سنة ١٨٥٦ توسَّع في الاستكشاف كل من الباحث « برتون وبيك ريبكر » إلى ما خلف ممباسا ، فكتوريا والبرت نيانزا » وتحقق أخيراً أنهما أهم المنابع التي يتكوَّن منها النيل ، وقد ساعدت الاكتشافات الأخيرة رجال اوروبا على التجوّل في وسط أفريقيا ، واستطاعوا الوصول الى قول عزَّوه ببراهين الاكتشافات والرحلات المتوالية في هذه الأقطار ، وكلل النجاح سعيهم ، كانوا مصداقاً للمثل القائل بأن من لازم السير في الدرب وصل الى مرحلة النجاح .

— ٤ —

رأي العرب في منابع النيل

ونثبت هنا ما جاء في كتاب « الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد » تأليف الشيخ احمد بن محمد بن عبد السلام المنوفي في ذكر منابع النيل

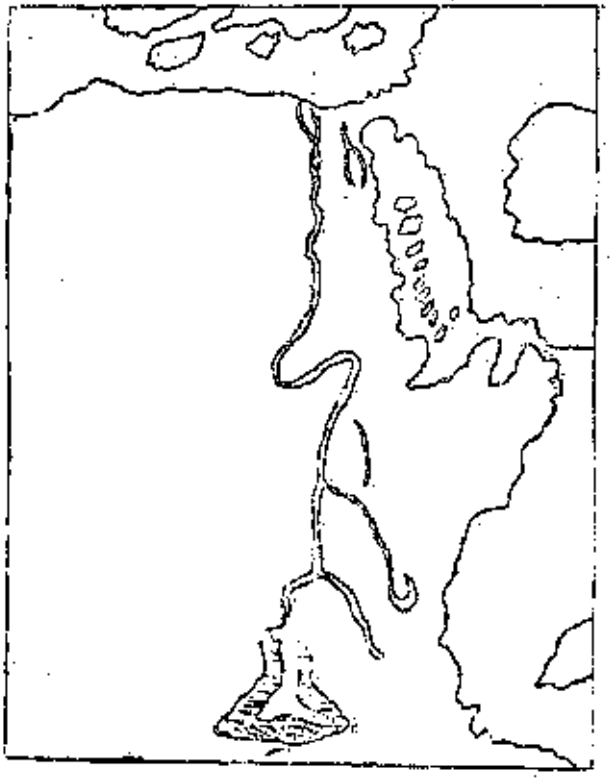

رقم ١١ — رسم مجرى النيل
حسب خريطة بطليموس المحفوظة بدير جبل اثوس

ذكر المؤرخون في أصل منبعه من مبتداه الى منتهاه أقوالاً ، فقال أكثرهم ومنهم الحافظ بن كثير في تاريخه الكبير أن مبتداه من الجبال القُمْر (بضم القاف وسكون الميم) أي البيض ، ومنهم من يقول « جبال القمر »(رقم ١١) (أي بفتح القاف) بالاضافة الى الكوكب وهي غربي الأرض وراء خط الاستواء في الجانب الجنوبي . ويقال إنها صخور تنبع من بينها عيون ثم تجتمع من عشرة مسيلات متباعدة ، ثم تجتمع كل خمسة منها في بحيرة ، ثم يخرج منها أنهار ستة ، ثم تجتمع كلها في بحيرة أخرى ، ثم

يخرج منها نهر واحد وهو النيل ، فيمر على بلاد السودان بالحبشة ، ثم على النوبة ومدينتها العظمى « دنقلة » ، ثم أعلى السودان ، ثم تظهر على ديار مصر ، ويحمل اليها من زيادات أمطارها ، ويجرف من ترابها ، وهي محتاجة إليها ، لأن مطرها قليل لايكفي زروعها وأشجارها ، وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزياداته وطينه ، فيلبث فيها ما يحتاجون إليه ، وهي من أحق الأرض دخولاً في قوله تعالى : « أوَلم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز لنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها « شطنوف » وهي من عمل القليوبية ، فيمر الغربي منه على « رشيد » ويصب في البحر الملح ، وأما الشرقي فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين ، يمر الغربي منهما على دمياط من غربيها ، ويصب في البحر الملح ، والشرقي منهما يمر على « أشمون طناح » فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط يقال لها بحيرة « تنيس وبحيرة دمياط » ، وهذا بعد بعد عظيم من ابتدائه الى انتهائه ، ولهذا كان ألطف المياه .

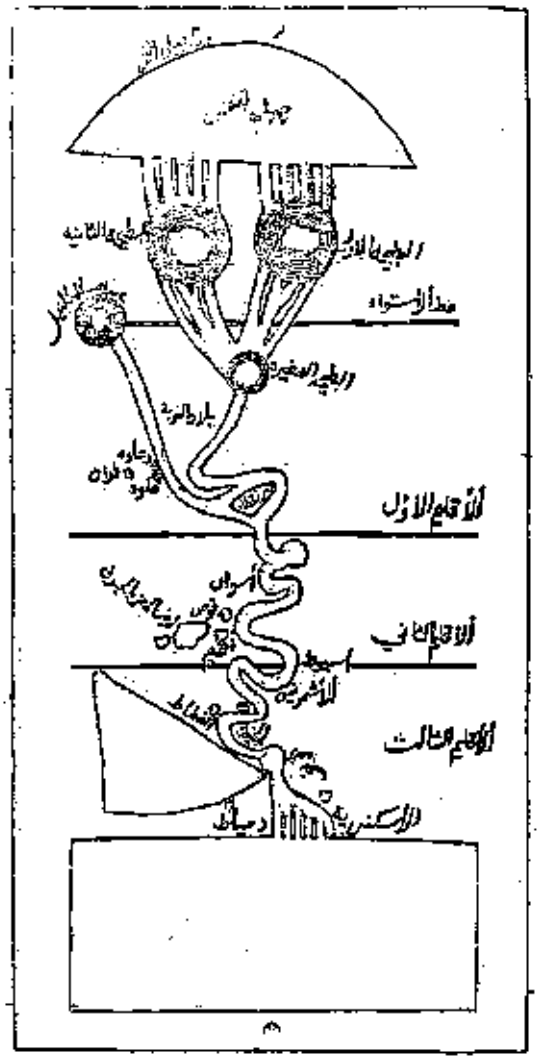

رقم ١٢ — خريطة وادي النيل لبطليموس نقلاً عن الخوارزمي

(وقال ابن القيم في كتاب الهدى) : النيل أحد أركان الجنة ، أصله من وراء جبال

القمر رقم (١٢) في أقصى بلاد الحبشة من أمطار تجتمع هناك ، وسيول يجر بعضها بعضاً ، فيسوقه الله تعالى الى الأرض الجرز التي لا نبات بها ، فيخرج به زرعاً تأكل منه الأنعام والأنام . ولما كانت الأرض التي يسوقه سبحانه إليها ابليزاً صلبة ، إن أمطرت مطر العادة لم ترو ولم تهيأ للنبات ، وإن أمطرت فوق العادة أضرّت الناس والمساكن ، وعطلت المعائش والمصالح ، فأمطر سبحانه البلاد لعبيده ، ثم ساق تلك الأمطار الى هذه الأرض في نهر عظيم ، وجعل سبحانه زيادته في أوقات معلومة على قدر ري البلاد وكفايتها . فاذا روى البلاد وعمرها أذن سبحانه بتناقصه وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع .

وقال قدامة : « إن منبع النيل في بلاد القمر وراء خط الاستواء من عين تجري منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب في بطيحة في الاقليم الأول ، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل » .

قال صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، إن هذه البحيرة تسمى بحيرة « كوري » منسوبة الى طائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين ، يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر النيل . وإذا خرج النيل منها يشق بلاد « كوري » ثم بلاد « قنة » طائفة من السودان أيضاً ، وهم بين « كاغم والنوبة » ثم يغوص في الرمال ، ويمر تحت الأرض مكتوماً من الجنوب الى الشمال ، ثم يظهر ببلاد النوبة فاذا بلغ مدينة « دنقلة » عطف من غربيها الى المغرب ، وانحدر الى الاقليم الثاني ، فيكون على شاطئيه عمائر النوبة ، وفيه جزائر لهم متسعة عامرة بالمدن والقرى ، ثم يشرق الى الجنادل ، وإليها تنتهي مراكب النوبة إنحداراً ، ومراكب الصعيد الأعلى صعوداً ، وهناك أحجار لا تمر المراكب عليها إلاّ في أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ الى الشمال ، فيكون على شرقيه مدينة اسوان من بلاد الصعيد الأعلى ، ثم يمر بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصر أحدهما شرقي والآخر غربي حتى يأتي مدينة مصر وهي الفسطاط الذي بناه عمرو بن العاص فيكون على شرقيه ، فاذا جاوزها انقسم كما تقدم ، قلت أي في قوله ، فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها « شطنوف » الى آخر ما ذكره .

[يتبع]